

فصل روائي أخير "الولادة الأخرى"



الخال عمّار
الجماعي

القمر البازغ يهب المشهد فجر الذّشأة الأولى. كنت على بضع خطوات منها لكنّها لا تراني فقد كانت منشغلة بنفسها تتشمّم الرّممل الذّديّ وتضرب بالحافر.. نزل الماء فتراخت.. نخرت وزحمت للطلق العسير.. تراخت إلى الأرض وفتحت منخريها للهواء الرّطيب القادم من الواحة.. عبّت منه ودفعت متشنّجة حملها فما استجاب.. حممت للألم وفتحت فمها فبان أسنانها القويّة.. انكسر سهيل في صدرها كمن يدعو حبيبا مفارقا ودفعت أكثر.. أكانت تأمل أن يراها سعيد في

موقفها هذا؟!.. أنا على يقين أنّها كانت تريد أن يربّت على عنقها فتجد عطره.. ألم تكن فرسه الرّابحة؟!.. حاولت أن تقف على قائمتيها فخذلتاها.. سقطت على جنبها الآخر واستسلمت للحظة يائسة.. كان الموت يرخي سدوله ويتأهّب لغرس نابه.. صوت ابن آوى وقد استقدمته رائحة الوضع يكسر الصّمت.. كانت عيناه تبرق خلف أجمة غير بعيدة..

كتمت أنفاسي وتركت الطّبيعة تدبّر أمرها.. عيني على فرس سعيد وقلبي منصرف لها.. ولا أدري والله ما أفعل!!
حفرت ساقها الأرض ودفعت أكثر من ذي قبل وأطلقت صهيلها عاليا.. خرج رأس المهر الصّغير وساقاه.. الالتفتت نحوه ورمقته بعين ذابلة.. ودفعت دفعتها الأخيرة فخرج ملتفّا في كيسه يحاول أن يمزّقه ليتنفّس.. واستسلمت هي للوجع فأغمضت عينيها الدّاعجتين! اقتربت عينا ابن آوى من الذّخلة المنفردة.. شمّت الفرس ريحه فقامت على قوائمها.. وجذبت الحبل السّرّي بأسنانها.. وقامت للمهر تلحسه وتشمّه في رأفة وحنو.. كان الله قريبا جدّا وأنا أدعوه بكلّ جوارحي: "اللّهم سلام" ..

اللتفّ ابن آوى بالذّخلة وتأهّب.. الالتفتت الفرس نحوه وضربت بحافرها فتراجع قليلا.. كان المهر الصّغير يسعى للوقوف فيسقط.. حتّى استقام واهتدى لضرع أمّه فألقمته حلمته..

والله، لقد رقص قلبي كما رقص لسعيد حين خطف لنا أنجما من السّماء.. وانصر لنا.

تحرّكت الفرس نحو الذّخلة فتبعها مهرها.. لفّت رقبتها على جذعها كمن يقبّل حبيبا.. وانّ دفع الصّهيل صافيا من صدرها.. وانّ نطلقت في البريّة كريح لا تدري زمن هبّوبه يتبعها مهرها.. وانّ خفت عنّي في غبارها..

تسلّل ابن آوى إلى السّلاء يتشمّمه ويخطفه خطف جائع ويعدو به.. كنت أرى المشهد وألعن بنات آوى.. فقد أخذوا في حكاياتنا الحزينة أكثر من وجه..

مال اللّيل إلى أواخره.. وسمعت آذان الفجر واضحا.. واضحا كدموعنا الّتي سالت من عشق جنوبي.. يبدأ من الذّخل وينتهي عنده.